ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
مجلد: 14 عدد: 01 مارس 2019
ص.ص. 11. 35
الشّعر الشّعبي الجزائري في الدراسات التاريخية

الشّعر الشّعبي الجزائري في الدراسات التاريخية: قصيدة «قصة مزغران» للشاعر الشّعبي سيدي لخضر بن خلوف أنموذجا.

هاشمي بن براهيم[1]، بوغفالة ودان[2]
1ـ ط. د. جامعة معسكر
benbrahimhachemi@yahoo.fr
2ـ مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر.
o.boughoufala@univ-mascara

تاريخ الإرسال: 02 / 09/ 2018؛ تاريخ القبول:08/ 10/ 2018

Algerian popular poetry in the historical studies: the poem "Mazaghrane's story" of the poet Sidi Lakhdar Benkhalouf.

BENBRAHIM Hachemi; BOUGHOFALA Ouddene

Abstract: This study shed light on Algerian popular poetry from a historical approach. Since popular poetry is a cultural and historical inheritance it is considered as a cultural outlet for Algerian people.

Although the divergences among critics in naming the popular poetry, they all agree on its importance.

Historians consider the popular poetry as an important historical source in historical studies because the popular poet is sometimes an eyewitness of the event or heard about it closely.

The poem " Mazaghrane's story " written by the popular poet Sidi Lakhdar Benkhalouf is one of the historical sources that chronicled the fierce battles between Algerian and Spanish armies . The popular poet cited important details of the battle as a participant and fighter in Hassan Pasha's army.

Keywords: Popular poetry; Algeria; Battle Mazaghran; Sidi Lakhdar Benkhalouf; Spaniard.

الملخص: تسلط هذه الدراسة الضوء على الشّعر الشّعبي من رؤية تاريخية؛ ولأنّ الشّعر الشّعبي موروث ثقافي وتاريخي في الجزائر، فقد كان متنفّسا ثقافيا للجزائريين، ورغم اختلاف النُّقاد على تسمية الشّعر الشّعبي إلّا أنّهم اجمعوا على أهميته.

اعتبر المؤرخون الشّعر الشّعبي مصدرا مهما في الدراسات التاريخية؛ لأنّ الشاعر الشعبي أحيانا يكون شاهد عيان في الحدث التاريخي أو سمع الخبر عن قرب.

تُعد قصيدة «قصة مزغران» للشاعر الشعبي سيدي لخضر بن خلوف من المصادر التاريخية التي أرّخت للمعارك الطاحنة بين الجزائريين والأسبان، وقد أورد الشاعر الشعبي تفاصيل مهمّة عن المعركة بصفته مشاركا ومقاتلا في جيش حسن باشا.

الكلمات المفتاحية: الشّعر الشّعبي؛ الجزائر؛ معركة مزغران؛ سيدي لخضر بن خلوف؛ الأسبان.

مقدمة:

اهتم الدارسون المتخصّصون في الشّعر الشّعبي وأولوه أهمية خاصة في دراساتهم كجزء عريق في ثقافة المجتمع الجزائري وتراثه اللّامادي، وكانتماء حضاري، ويحمل رؤية المجتمع لتاريخه وتعبيره عن أحاسيسه للقضايا التي تهمه على لسان الشاعر الشعبي.

منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد تفاعل الشّعراء الشّعبيون مع الأحداث السياسية التي عاشها الجزائر، وتزامن ذلك مع تعرّض سواحل الجزائر للتحرشات الاسبانية التي نتج عنها احتلال مدن جزائرية ساحلية واستنجاد سكان الجزائر بالإخوة بربروسة، وهذا كلّه مع بداية القرن السّادس عشر الميلادي، فقد تفاعل الشّعراء مع هذه الأحداث الدراماتيكية والتحولات السياسية، منهم من ناصر الأتراك ومنهم من ناصبهم العداء .

الهدف من هذه الدراسة هو معرفة أهمية الشّعر الشّعبي في تاريخ الجزائر منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ميلادي، وتعريف مصطلح الشّعر الشّعبي، وإبراز الدراسات التّاريخية التي تناولته وما مدى مساهمته في كتابة تاريخ الجزائر.

1ـ مفهوم الشعر الشعبي:

اختلف النُّقاد المتخصّصون في الشّعر الشّعبي حول التسمية المضبوطة لهذا النوع من الشّعر، فنعتوا هذا النوع من القصائد بأنّه «زجل»، أو «ملحون» (دحو العربي، 1989: 25) ويميل التلّي بن الشيخ إلى أنّ إطلاق الشّعبي عليه هو الأصحّ والأعمّ؛ وهو يرى أنّ الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية هي التي تحكّمت في الشاعر، بحيث يقول: «وذلك أنّ الشّعر الشّعبي قد نشأ في ظروف اجتماعية وسياسية متباينة طبعت عليه سيّاجا من العزلة الثقافية والحضارية جعلته يستعمل ألفاظا محدودة» (بن الشيخ التلّي، 2007: 365- 360).

ويرى الباحث نفسه أنّ الدارسين يتفقون على تسمية الشّعبي على الفنون الأخرى للأدب الشّعبي، ويتحفّظون الحديث عن الشّعر الشّعبي وحصره في النوع الذي يُجهل قوله (بن شيخ التّلي، 2007: 366)، بينما يرى العربي دحو أنّ سبب الاختلاف في التسمية راجع إلى الجزئية التي اتسمت بها بعض الآراء، وتحديد معاني الكلمات (العربي دحو، 1989: 25).

يذهب محمد المرزوقي وهو أحد الدّارسين والباحثين للأدب الشّعبي في المغرب العربي، إلى أنّ تسمية الشّعر الشّعبي والعامي خطأ يجب تصحيحه عند المتخصّصين في هذا الفن، فهو يرى أنّ تسمية الشّعر الملحون أهم وأدق من التسميتين الأخريين (الزجل والشّعبي)، فيقول: «أما الشّعر الملحون الذي نريد أن نتحدّث عنه اليوم فهو أعمّ من الشّعر الشّعبي، إذ يشمل كل الشّعر المنظوم بالعاميّة سواء أكان المؤلف معروف أو مجهول، وسواء روى من الكتب أو مشافهة، وسواء دخل حياة الشعب فأصبح ملكا له، أو كان من الشّعر الخواص» (المرزوقي محمد، 1967: 51)، فهو يرى أنّ وصف الشّعر الشعبي بالملحون أولى من وصفه بالعاميّ، فهو من لَحَنَ يَلْحَن في كلامه أي نُطِق بلغة عامية غير مُعربة (المرزوقي محمد، 1967: 51)، إذّ يبرر رفضه بوصفه بالعاميّ بأنّه يُخرجه من نطاقه الاصطلاحي فيقول : «... فقد ينصرف معنى هذه الكلمة إلى عامية غير لغته، وقد ينصرف نسبته إلى العامية فكان وصفه بالملحون مبعدا عن هذه الاحتمالات» (المرزوقي محمد، 1967: 51).

ويؤكد هذا الرأي عبد الله الركيبي، ويتفق مع المرزوقي في التسمية، فهو يرى أنّه موجّه إلى فئة معيّنة حيث يقول : «والواقع أنّ منشئ هذا الشّعر معروف كتابته بهذه الطريقة بغرض مخاطبة الوجدان القارئ العادي البسيط الذي قد لا يستطيع أنّ يتذوق الشعر الفصيح» (الركيبي عبد الله، 1981: 363)، وحسبه (الركيبي) قصائد الملحون ومنظوماته، عبّرت عن أشواق الناس وحكايات نفوسهم، وقد ذكر أنّ القصيدة مجهولة القائل تتداول على ألسنة الناس فإنها تقود قائلها وناظمها؛ لأنّ الشاعر أثّرت فيه مجموعة من العوامل جعلت اسمه يختفي بمرور الزمن؛ إذ النّص يبقى مرتبطا بصاحبه (الركيبي عبد الله، 1981:363).

لكن بعض النّقاد لا يتقبلون مصطلح الملحون؛ لأنّه في نظرهم فرضه المتعلمون من المسلمين العرب المغاربة على هذا النوع من الشعر الذي لا يَرَون فيه أولا وقبل كل شيء غير ذلك الانحراف عن المقياس اللغوي.

2ـ دراسات فرنسية تاريخية حول الشّعر الشّعبي:

بدأت مجلة الشرق(La revue de l' Orient)، منذ سنة 1843م في نشر قصائد الشّعر الشّعبي؛ حيث نشرت مرثية عبد القادر المازوني الوهراني حول سقوط مدينة الجزائر، ويعود اهتمام الفرنسيين بهذا النوع من الشّعر لأغراض سياسية (سعد الله أبو قاسم، 1988: 308)، ويُعد الشيخ عبد القادر أول من وصف حال مدينة الجزائر بعد معاهدة الاستسلام في 05/ 07/ 1830م، يقول أبو القاسم سعد الله عنه : «أنّه

أحس بالفاجعة وتأثر بها فنظَم قصيدته، والقصيدة وان كانت في الحقيقة رثاء لكل الجزائر؛ لأنّه ما وقع للعاصمة في أول الأمر وقع مثله في غيرها بعد ذلك» (سعد الله أبو القاسم، 1998: 308)، وقد أعاد ديبارمي (Desparmet) نشر القصيدة السابقة في نفس المجلة تحت عنوان «دخول الفرنسيين مدينة الجزائر للشيخ عبد القادر» : Desparmet. J, 1930) (225، ونشر ديبارمي النّص العربي وأعاد ترجمته بالفرنسية، ويُؤكد أنّ قصائد الشعر الملحون يستعملها على العموم المدّاح الذي يتجول في الأسواق، يلقي قصيدة على الناس ليثير استياءهم وتذّمرهم ضد الاستعمار الفرنسي مستعملا طريقة الوعظ والبقاء والتضّرع إلى الله (Desparmet. J, 1930 : 225) ، وذلك ليبعث في نفوس مستمعيه أملا في الثورة ضد الاحتلال، ويرى الباحث الفرنسي أنّ قصيدة الشيخ عبد القادر التي نشرها كانت من بين الأسباب التي هيأت للثورة في العاصمة وضواحيها سنة 1830م بقيادة ابن زموم (Desparmet. J, 1930 :226).

إضافة إلى هذا نشر محمد بن شنب في المجلة نفسها سنة 1907م قصيدة لمحمد بن إسماعيل تحت عنوان «حرب القِرم والجزائريين» .Bencheneb) (M, 1907 :169، يرجع محمد بن شنب ولادة محمد بن إسماعيل ناظم القصيدة سنة 1820م ووفاته سنة 1880م، وشعره معروف في جُرجرة، ومليانة، والمدية، وشرشال لأنّه كان يلقي قصائده في هذه المناطق169: Bencheneb. M, 1907)).

تبيّن القصيدة مدى اهتمام الجزائريين بالأحداث التي تعرض لها العالم الإسلامي، ومن بين الأحداث هامة حرب القِرم التي جرت بين الدولة

العثمانية وروسيا 1854م، وتكمن أهمية القصيدة في أنّها وسيلة إعلامية لإعلام الجزائريين بالإحداث التي جرت في العالم الإسلامي، ويبدأ الشيخ بن إسماعيل قصيدته بالبسملة والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويدعو الناس إلى الدّعاء للمجاهدين بالنّصر.

قَالْ الَملِيْكْ المَجِيْدْ   لْعُلَمَهْ الْمدُنْ وَوْزَاْ

الْمسْكُوْا بْحَرْبَهْ قَاْصَدْ   لَهْلَاْكْنَا بْجَيْشَهْ قَاْصَدْ

.(Bencheneb. M, 1907 : 173)

أما في سنة 1918م فقد نشر الباحث الفرنسي كور (Cour) شعرا شعبيا في المجلة السابقة حول الشّعر الشّعبي السياسي في عهد الأمير عبد القادر (Cour.A ,1918 :458)، وقد نشر كور قصيدتين شعريتين تتضمنان وجهة نظر متناقضة حول الأمير عبد القادر، الأولى لولد أمحمد النّقابي البرجي يهجوا فيها الأمير عبد القادر، ويُعبّر عن الرأي السياسي لقبائل الدّواير، يقول الأغا المزاري: «هو قدور ولد أمحمد بونقاب ولد الصحراوي» (الأغا المزاري، 2009: 327)، ووصفه كذلك بأنّه الشاعر في الملحون، والمشهور بالأدب وإزالة النائبات، فكان من أهل الكمال، والأخلاق الجميلة في الأقوال والأفعال (الأغا المزاري، 2009، 331).

كان مُحبّبا للأمير عبد القادر حتى قال عنه حين ذُكره بسوء في مجلسه:» أصمتوا، أصمتوا ولد محمد وليٌّ صالح ولا نعلم قوته (Cour. A,

(476: 1918، لكن الأمير عبد القادر سجنه؛ لأنّه تحالف مع محمد الغْربي الذي خرج عن طاعة الأمير عبد القادر (سعد الله أبو قاسم، 1998: 315)، فنظّم القصيدة وهذا مطلعها:

عْيِيْتْ صَابَرْ وَنْرَاعِيْ فِيْكْ الافْتِصَالْ   يَاقْرِيبْ الضَحْكَةْ وَبْعِيْدْ فِيْ رْضَاكْ

مَاسْمَعْتْ وْلاْ شْفْتْ القْسى كِيْ قْسَاكْ   يْظَنْ فِيْكْ الطَامَعْ كِمَاْ بْغَيْ يْنَالْ

يْحَبْ قَلْبَكْ يَعْفُوْ وَيْخَافْ مَنْ جْفَاكْ

.(Cour. A ,1918 :463)

أما القصيدة الثانية تمدح الأمير عبد القادر وتعود للشيخ الطاهر بن حوّا، يقول محمد القاضي عنه:» هو السيد الطاهر بن حوّا من أولاد سدي بوزيد القاطنين حذو غليزان ذو علم وقصاصة له باع طويل في الشّعر الملحون (قاضي محمد، 2007: 68)، وقد لقّبه الأمير عبد القادر بالفقيه، الأديب، النّبيه، الفصيح، البليغ (الأمير عبد القادر، 2007: 144)، وينتمي بن حوّا إلى أغاليك الشرق بزعامة محمد العربي، رغم هذا فقد قرّبه الأمير عبد القادر إليه وجعله النّاطق الرّسمي له والمدافع عنه ضدّ خصومه الذين يعارضونه، والشعراء الذين يهجوه (Cour. A, 477 : 1918)، وهو الذي حرّر وتلا وثيقة البيعة الثانية أمام رؤساء القبائل والحشود والأشراف والعلماء (العربي اسماعيل، د.ت :43).

القصيدة مدح للأمير عبد القادر، وهذا مطلعها:

يَا مَنْ دَرَي شِيْ مَنْ يَوْمْ سُلْطَانِيْ   مَمْزُوجْ بَالْمَسَرَاتْ وَالرِضَا مَبْرُوكْ

بَلِيْ تحَبْ وَلّيْ يَجْمَعْ شَمْلَكْ وَيْدِيْلَكْ مَوْلَاكْ فِيْ الْمْضِيْفْ سْلُوْكْ

ثْنَالْ كَلَّةْ الصَاعْبَةْ يَقْوَىَ نَصرَكْ تَقْبَضْ مْفَاتَحْ الخَيْرْ وَالقْفَلْ مَفْكُوْكْ

(Cour. A,1918 : 478)

لكن الطاهر بن حوّا سُجن بعد مناصرته لمحمد العْربي قائد أغاليك الشرق، يقول كور عن سي العْربي: «إنّ الأمير عبد القادر كان يتوجّس من القوة السياسية التي يملكها محمد العربي، عكس الأمير عبد القادر لديه النفوذ الديني الذي يتمثل في الطريقة القادرية، والذي كان يتحكم في قبائل كبيرة وحربية، وهي مخزن سابق الأتراك» (Cour. A, 1918 :461).

بعد مقتل العربي في سجنه وإخماد تمرده على الأمير، اتّهم ابن حوا الأمير عبد القادر وحاشيته بقتل صهره العربي في السجن مقيّد اليدين:

مَاتْ العَقِيدْ مُحَمَدْ بْلَا قْتَالْ وَلاَ عْلِيْهْ هِيْلَاتْ اَطْمُوْمْ اِيْشَالُوْا

الحُزْنْ وَ اْجَبْ عْلِيْنَا الجْمَالْ اِنْطْوَيْ اْعْلَاْمْنَاْ وَ اْنْدْرَسْ اْخْيْالُو

وَالغَرْبْ زَهْرَتْ نْجُوْمَهْ وَرْجَعْلُوْ الحَالْ والشَرْقْ صَدْ حُرْمَهْ واَنْمْسَى هْلَاَلُو

(البوعبدلي المهدي، 1983: 163).

جمع الباحث الفرنسي سونيك (Sonnek) عدة قصائد من الشّعر الملحون (الشّعر الشّعبي) المغاربي في كتاب، يتضمن قصائد شعبيّة من الجزائر، وتونس، والمغرب الأقصى، تعود إلى فحول شعراء الملحون، أمّا أهمّ

القصائد التي جمعها ونشرها سونيك فتعود لسيدي لخضر بن خلوف، وأبي مسلم بن عبد القادر العامري، الكاتب الذي خدم الباي حسن باي وهران، وعبد القادر الوهراني، والشاعر محمد بلخير شاعر ثورة بوعمامة.

ونشر كذلك قصيدة مهمّة للشاعر الشّعبي سيدي لخضر بن خلوف الذي يصِف الوضع في وهران أثناء الاحتلال الاسباني للمدينة في القرن السادس عشر ميلادي، وانعدام الأمن في المنطقة، وغلاء المواد الأساسية وندرتها وتعدّد هجمات الأسبان على السواحل الجزائرية والمغاربية يقول:

طَامَةْ تْجِيْ مَنْ الْبَحَرْ كِالْنْمَلْ غْوَارْ تّدِّيْ قْلِيْلْ مَنْ الاسْلَامْ مْكَبَّلْ اَسْراْ

وْشِيْ اِسْلَامْ ثَانْيَا لَلْكُفَّارْ وَالنَّاسْ بَاقْيَّةْ فِيْ الْهْلَاكْ وَالقَهْراْ

وَيْجِوَكْ قَوْمْ الأَتْرَاكْ وَالْعْرَبْ جْنَادْ وَيُوقَعْ طْرَادْ كْثِيْرَةْ ثَمَّا فِيْ غَمْرَاْ

وَالرْجَالْ ضَاجَّةْ والنْسَا مْعْ الأَوْلَادْ وَالكُورْ مْعَ الرْصَاصْ لَاْ فَتْرَاْ

(سونيك، 1995: 368).

3ـ قصيدة «قصّة مَزَغْرَانْ» لسيدي لخضر بن خلوف أنموذجا:

تُعد قصيدة «قصة مزغران» من بين قصائد الشّعر الشّعبي التي أرّخت للمعارك الطاحنة بين الأتراك والقبائل المتحالفة معهم من جهة والاحتلال الاسباني المتمركز بمدينة وهران وضواحيها، من جهة أخرى. القصيدة لشاهد عيّان شارك في المعركة التي جرت في بلدة مزغران القريبة

من مدينة مستغانم سنة 1558م، وتضمّنت تفاصيل مهمّة للمعركة، لم يتكلّم عنها المؤرخون، تضمنّت مشاركة القبائل الوهرانية في المعركة، بعض هذه القبائل متحالفة مع الأسبان والأخرى مع الأتراك.

أـ نبذة عن حياة الشاعر سيدي لخضر بن خلوف:

وردت معلومات عن حياة الشاعر مُقتضبة وغير كافية، ورغم ما قدّمه من قصائد كثيرة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول الباحث الغوثي بخوشة عن نسبه، وهو الذي جمع أشعاره في كتاب:» يرجع نسب سيدي لخضر إلى المولى إدريس الأكبر، فهو مغراوي الأصل شريف النسب، يلتحق بجدّه عيسى الذي انتقل إلى الشّقران من ناحية مستغانم (الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 47)، وقد عاش في القرن السادس عشر ميلادي وهو القائل عن نفسه أنّه عاش أكثر من قرن في إحدى قصائده « اِبْقَاوْ بَالْسْلَامَةْ»:

مَنْ قَرْنْ الثْمَانْيَةْ اَديْتْ سْنِينْ والأَيَامْ هَامْلَةْ وَلْجَالَبْ مَجْلوبْ

بْفَضْلْ اللهْ تَمَيْتْ القَرْنْ التَاَسَعْ وَالفُلْكْ يَثْنَى وَ الحَاسَبْ مَحْسُوبْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 190، 191).

يقول أحد الباحثين عنه:» كان عالما كبيرا بين أبناء عصره، إذ كان حافظا لكتاب الله، مطّلعا على كتب السيرة، والحديث والفقه والأدب والتاريخ (الدواجي جلول، 2006: 72)، وقال عنه محمد قاضي أنه مدفون في ناحية مستغانم، وأفنى عمره في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم،

ووعظ النّاس وتذكيرهم بعذاب الآخرة وإرشادهم للخير والصلاح (قاضي محمد، 2007: 72).

شارك الشّاعر في معركة مزغران وهو شابٌّ؛ ذلك ما ذكره في إحدى قصائده، وعمّر سيدي لخضر بن خلوف طويلاً، وبلغ ما زاد على مئة وخمسة وعشرين عاما حسب قول محمد الغوثي بخوشة:

حَسْراهْ يَا الدُنْيَا كِلِّيْ مَا كَانَتْ   عَدَّيْتْ صُغْرِيْ فِيْ مَزَغْرَانْ

سَيْفِيْ مْجَرَدْ وَانَا نَضرُبْ فِيْ الأَعْدَاْءْ وَالنَّاسْ ضَاجَّهْ مَنْ زَجْرِيْ بَالْخَوْفْ

يْمِيْنِي وَعَنْ شْمَالِيْ رَاقَدَةْ   وَالخَلْقْ طَايْحَةْ تَحْسَبْ بَالأُلُوفْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 26).

ب ـ تفاصيل معركة مزغران سنة 1558م:

بدأ الشّاعر الشّعبي قصيدته بالتذكير بمعركة مزغران التي وقعت بين الجزائريين والجيش الإسباني، حيث يُعظّم ذلك اليوم الذي انتصر فيه العثمانيين والقبائل المتحالفة معهم في مزغران.

يَا فَارَسْ مَنْ ثَمَّ جَيْتْ اليَومْ   غَزْوَةْ مَزَغْرَانْ مَعْلُوْمَةُ

يَا عَجْلَانْ رَيَضْ المَلْجُومْ   رَاْيَتْ جْنَابْ اَلْشُلُوْ مَوْشُومَةْ

يَا سَايَلْنِّيْ عَنْ طْرَادْ اليَوْمْ   قَصَةْ مَزَغْرَانْ مَعْلُومَةْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 182).

مزغران مدينة صغيرة تقع على بضع كيلومترات غرب مدينة مستغانم، قال عنها مرمول كربخال: «مدينة صغيرة موغِلة في القدم، تقع على بعد نصف فرسخ من البحر وعلى بعد ثلاثة عشر فرسخا شرقيّ وهران، يُقال إن تأسيسها تمّ على يدّ السكان الأصليين، كان القدماء يسمون مرساها بمرسى الآلهة» (كربخال مرمول، 1989: 349)، ووصفها الحسن الوزّان بأنّها «مدينة صغيرة بناها الأفارقة على شاطئ البحر المتوسط، قريبا من مصّب نهر الشلف في البحر، وهي كثيرة السكان مصونة، لكنّها تتعرض لهجمات الأعراب» (الوزان الحسن، 1986: 32).

يبيّن الشاعر أنّ قصته هي معركة بين حسن بن خير الدين بربروس والنّصراني الكونت دالكوديت (Comte d'Alcaudète) وأن الأسبان اتفقوا في اسبانيا بإمداد الجيش الاسباني بوهران بآلاف الجنود إضافة إلى عشرات السّفن الحربية، يقول في ذلك :

يَا سَايَلْنِيْ كِيفْ ذَلْ القَصَةُ بَيْنْ النَّصْرَانِيْ وْخَيْرْ الدِيْنْ

اِجْتَمْعُوا فِيْ بَرْهُمْ الأَقْصَىْ بْجَيْشْ قْوَيْ جَاْوْ مَتْهَدّيْنْ

ثْرَىْ سْفُونْ الرُومْ مَحْتَرْقَةْ صَبْحُواْ فِيْ المْنَا أَعْدَاءْ الدَّيْنْ

(الغوثي بخوشة، د. تك: 182).

تعرّضت مستغانم لحملتين كبيرتين، انطلاقا من وهران، وكلتا الحملتين باءت بالفشل، الأولى كانت سنة 1543م والثانية 1547م، أما في سنة 1558م فقد أصرّ حاكم وهران الكونت دالكوديت على احتلال

مستغانم نهائيا لأهميتها الإستراتيجية؛ لأنّها تعدّ قريبة من وهران وتهدد الاحتلال الاسباني في الغرب الجزائري ومركزه وهران، وإذا كُتب لها أن تُحتل فإنّها تفتح أفاق التوسع الاسباني في الشرق وتهدد الوجود العثماني في الجزائر، ولتجاوز أخطاء الحملتين السابقتين، تحالف الكونت مع سلطان المغرب محمد المهدي، وهذا الأخير اتّفق مع قائد قبائل بني راشد المنصور بن بوغاني على دخول الشريف السّعدي إلى تلمسان، لكن بقيت حامية تركية صغيرة محاصرة في قلعة المشوَار في استماتة يائسة بقيادة قائد تركي يدعي صافا (Mouloud. G, 77. 78) .

انتقل الكونت دالكوديت إلى اسبانيا، وبالضبط إلى مدينة بلد الوليد (Valladolid)، عاصمة المملكة القشتالية، وخلّف في منصبه ابنه الدون مارتين (Don Matin)، ليَعرِض خطته العسكرية لاحتلال مستغانم، وإقناع المجلس الملكي القشتالي بها، عرض خطته المبنيّة على التحالف مع ملك المغرب وقبائل بني عامر في وهران وحلفائهم.

يقول بول روف(Paui Ruff): إنّ الرئيس الملكي القشتالي (Juan de Vega)، أبدى تأييده للحملة على مستغانم، لكن لقيّ معارضة من لويس أورتادو دي مندوثا (Mondoça de Hurtado) وأحتج في ذلك أنّ الكونت لم يقدم أيّ ضمانات لنجاح الحملة، وقوة ومتانة هذا الحلف الذي أقامه مع ملك المغرب والقبائل الوهرانية المتحالفة معه (Paul . R, 159 : 1998)، لهذا أبدى معارضته الشديدة للحملة بحكم خبرته في شؤون الدول البرباريسكية (المغاربية)، وبعد أخذ وردّ حصل على المدد

الذي كان يرجوه وهو الحصول على ثمانية آلاف جندي إضافي، إضافة على عشرات السفن متعدّدة المهام.

إِسْتْعَدْ السُلْطَانْ بِالْحَرَكَةَ   صَارْ الغَيْبْ الحَقْ وَنْزَلْ

إِسْتَوْعَظْ فِيْ طُلْبَهْ وَشْكَىَ   وَمْشَىَ لْحُرْمْ الثَعْلِيْ وَدْخَلْ

وَاْتَفْتَحْ بِاْلْبَرْ وَالبَرَكَةُ قَدَّمْ   جَاْهْ المُصْطْفَى وَرْحَلْ

ظَلْ يْسِيْرْ بَعْسَاْكْرَهْ وَ القَوْمْ   فِيْ وَطْنْ مَتِيْجَاْ وَلْبَحْ المَاْ

فِيْ أَمْرَهْ جَاْتْ العَرَبْ اِطْمُوْمْ   سُلْطَاْنْ عَادَلْ طَاعْتَهْ الأُمَّةْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 183).

نلاحظ في هذه الأبيات التي قالها الشاعر سيدي لخضر بن خلوف، أنّ حسن باشا كان على علم بخطّة الأسبان ودخول المغاربة تلمسان، فأراد أن يُنجد الحامية التركية المحاصرة في قلعة المشُور، وقبل ذلك أجتمع بدوانه، وضمّ هذا الديوان زُهاء سبعمائة من العسكر والبقية هم أعضاء الحكومة وشُواش الباشا والعلماء والوجهاء ونقيب الأشراف وضبّاط البحرية (عبّاد صالح، 2014: 281).

جمع حسن بن خير الدين جيشا قوامه أربعة آلاف شخص لنجدة الحامية المحاصرة بتلمسان يقول دييغو دي هايدو (Diego de Haedo) : «جمع حسن باشا ثلاثة آلاف من الانكشارية وألفا من الصبايحية يركبون الخيالة».(Diego.H, 1880 :238).

وقبل ذلك زار حسن باشا وجيشه مقام الوالي الصوفيّ عبد الرحمن الثعالبي، ومن عادة الأتراك حين يستعدون لغزوة بحرية أو بريّة أن يقوموا بزيارة أضرحة شيوخ الصوفية لكسب الشرعية الدينية، يقول المنّور مروش عن شخصية عبد الرحمن الثعالبي: «كان رجل علم وتقوى وبعد سنوات من طلب العلم في بجاية سافر إلى تونس والقاهرة والجزيرة العربية، ثم استقر في الجزائر متفرّغا للتدريس والتأليف» (مروش المنور، 2009:656).

ويقدّم لنا سيدي لخضر بن خلوف الطريق الذي سلكه حسن باشا بجيشه إلى تلمسان، دخل وطن متيجة وانضمّت إليه قبائل سويد العربية، المخيّمة على ضفاف وادي الشلف، ومناطقها التقليدية.

أَخْذْ الوَادْ الشَّايَعْ المَعْلُومْ   فِيهْ اِظْلَانْ اِسْوِيدْ مَلْمُومَةْ

جَاوْ شْيُوخْ اِسْوِيْدْ لَلْسُلْطَانْ   فِيهُمْ أَبُوْ بَكَرْ ومُحَمَدْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 183).

دخل حسن باشا تلمسان دون مقاومة تُذكر، لأن جنود الشريف سلطان المغرب انسحبوا إلى فاس، لكنّ حسن باشا لم يتوقف عند تحرير المدينة بل رأى من الصواب القضاء على دولة السعديين، يقول أحمد توفيق المدني : «لكن حسن باشا رأى وّجوب تتبعهم، والقضاء على دولة السّعديين ووصل إلى مقربة من مدينة فاس، والتقى الجمعان على واد البّن،

ودارت معركة لم تسفر عن نصر حاسم» (المدني أحمد توفيق، د. ت: 372).

عاد الكونت حاكم وهران إلى المدينة وبرفقته الآلاف الجنود والمتطوّعين الذين وجدهم في مدينة قرطاجنة (Crathagéne) ومكث في وهران مدة ستة أيام، تزامن والمفاوضات مع أهالي مدينة تلمسان برئاسة المنصور بن بوغاني قائد بني راشد (Paul. R, 1998 :163).

وأخبرنا شاعرنا أنّ طريق تحرك الجيش الاسباني من وهران إلى مزغران، بدأ بتوجّهه إلى سهل زيدور غرب مدينة وهران، ثم إلى واد فكان جنوب معسكر، وقطعوا واد سيق شمال المدينة حتى وصلوا إلى مزغران، يقول في ذلك:

مَا بَاحُوْ بَالَصَوْتْ إلاّ شَطْنَا   مِنْ زَيْدُوْرْ لْوَادْ فْكَاْنْ

قَطْعُوْا سِيْقْ وَتْوَجْهُوْا لَهْنَاْ   زَادُوْا بَالحَرْكَةْ الْمَزَغرَانْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 182).

إنّ خطة الكونت دالكوديت كانت تقتضي كما قال أحمد توفيق المدني بأن يتحرك جيش السّلطان السّعدي في الوقت نفسه سالكا طريق الخليفة، لكي يهاجم مدينة مليانة، بينما الجزائريون مُلتحمون مع الأسبان، فيقعون بين نارين وينتهي أمر الأتراك في الجزائر نهائيا (المدني أحمد توفيق، د. ت: 327)؛ لكن الأمور جرت عكس ما توقّع حاكم وهران، فقرر أن يعوض خطّته الأولى بخطّة بديلة، تبدأ بتأديب بعض

القبائل التي تحالفت مع الأتراك وخصوصا في معسكر وضواحيها، ويؤكد بول روف ما قاله سيدي لخضر بن خلوف بأنّ الكونت اتّجه جنوبا إلى المنطقة الجبلية تسالة (Paul. R, 1998 : 163)، وتسالة موطن بني عامر، وقد دخلوا تحت طاعتهم وهم كما ذكرهم محمد بن يونس الزياني: «الونازرة وقيزة وشافع وحميان وأولاد علي وأولاد عبد الله وغيرهم من بني عامر» (الزياني محمد بن يونس، 2007: 142).

وصل الكونت مستغانم مُرهقا مع جيشه بعد مناوشات التي جرت مع القبائل المجاورة للمدينة وطول الطريق التي سلكها، وعند دخول المدينة مزغران وجدها خاوية من سكّانها؛ الذين لجؤوا إلى مدينة مستغانم (Paul. R, 1998 : 167)، وذلك يوم الثلاثاء 23 أوت 1558م، تزامن ذلك مع استيلاء الأتراك على السفن الاسبانية، يقول روف: «إنّ خمس فرطاقات تركية استولت على سفن اسبانية من نوع(Brigantin) انطلقت من ميناء أرزيو» (Paul. R, 1998 : 170).

لقد كانت هذه السفن محمّلة بالمؤن للجنود الأسبان الذين قطعوا مسافة طويلة للوصول إلى مستغانم، فكانت خيبة أمل كبيرة لجنود الكونت الذين أعياهم السّير والهجمات المتعدّدة التي واجهتهم خلال مسيرهم إلى مزغران، فكان الجيش في حالة منهكة وأصابه الجوع والعطش حتى أكلوا الأعشاب البرّية، يقول في ذلك سيدي لخضر بن خلوف:

يَتْنَادُوْا وَتْخَلْفُوْا بَجْيُوشْ   جَيْشْ القَنَا الكَاْفَرْ الغَشّاشْ

يَلْتَقْطُواْ فِيْ الصَيْدْ وَالبَبُوْشْ   مَاْ خَلّاوْ مِنْ فَوْقْ البْسَاطْ اِخْشَاْشْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 182).

حُصِر الأسبان داخل مدينة مزغران، وقد صوّر شاعرنا هول المعركة، وذكر أنّ الجيش الاسباني قُتل منه عشر آلاف شخص وأُسِر تسعة ألاف.

حَزْنَاْهُمْ للصُوْرْ ذَاكْ اليُوْمْ   تَسْعَةُ آلَافْ بْقَاتْ مَغْنُومَةٌ

مِنْ حَيْطْ الدَشْرَةْ لْحَوْضْ الدَوْمْ   عَشْرَةْ آلَافْ مْشَاْتْ مَحْطُوْمَةٌ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 185).

يقدم لنا الشاعر وصفا يبيّن كيف قتل الكونت دالكوديت، يصف مقتله على يد أحد المقاتلين في صفوف حسن باشا، ويقدّم وصفا مثيرا عكس ما جاء في الروايات الاسبانية، حسب سيدي لخضر بن خلوف الذي كان شاهدا عيان في معركة بصفته مشاركا فيها، أنّ القائد الاسباني تبارز بالسيف واستعمل العراك بالأيدي، وفُصلت رأسه عن جسده بضربة سيف، وأسقطت أسنانه بنطحة رأس الذي قتله، يقول في ذلك:

كْبِرْ النِيْفْ رَاْسَهْ طَاْرْ   وَالرَقْبَةُ منْ الحَنْفْ مَقْطُوعَةْ

ضَرْبَهْ شَاطَرْ بَاْلْمَطْيَارْ   يَلْغَىَ لَهْ بْأَصْوَاْتْ مَنْزُوْعَهْ

وَمْسَىَ الشَاْرَبْ كَلْتَهْ مَقْسُومْ   والسَنَّةْ بَالْنْطَحْ مفْرُوْمَةْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 185).

خلاف ما أوردته الروايات الاسبانية التي وصفت مقتله بالشجاعة النادرة، وأنّ مقتله بسبب سقوطه عن الجواد، وموته تحت أقدام جنوده

الفّارين من أرض المعركة، يقول مارمول في ذلك: دخل القائد إلى القلعة من باب سرية عازما على إخراجهم وسوقهم إلى القتال، ولكنّه لم يقدر على اختراق الحشد المندفع فرارا إلى الداخل،بل إنّ فرسه قد حرَن به وثار ملقيا بركابه من فوق ردفه فداسه جمهور الجنود الذين كان مهتما بخلاصه أكثر من اهتمامه بواجبه؛ وذلك فرارا أمام الأتراك الذين يطاردونه، وبما أنّه متقدم في السّن فسرعان ما اختنقت أنفاسه ومات مُداسا بأقدام جنوده (كربخال مرمول، 1989: 366)، وهذا ما ذهب إليه مورالاس (Morales) (Paul. R, 1998 : 174)

وبيّن سيدي لخضر بن خلوف أنّ الكونت دالكوديت دفنه ضبّاطه لكي لا تنحط معنويات جنوده، لكن بعد هزيمة الأسبان أمر حسن باشا بإخراج جثّته من التراب.

طَلْ عْلَىْ الفَرْطَاسْ يَوْمَ مَاْتْ فِيْ المَغْرَبْ أَهْلْ الخَزْيْ رَدْمُوْهْ

اَحْلَفْ لْهُمْ بْثْبَاتْ شِيْبْ النَّارْ مِنْ الثْرَىْ جَبْدُوهْ

اِحْتَطُوْا بَالْفَاسْ وَلْمَسْحَاْتْ لَنْ وَجْدُوْهْ منْ الثْرَىْ جَابُوهْ

(الغوثي بوخشة محمد، د. ت: 186).

هذه المعلومة التي أوردها الشاعر في قصيدته أكّدها مارمول كربخال بأنّ الكونت بعد مقتله دفن في مسجد مدينة مزغران يقول: «وقام الذين دخلوا المدينة بدفن جثّته في المسجد ولم يمض وقت وجيز حتى استولى الأتراك على المدينة وقبضوا على ولده الذي حاول أن يدافع عن نفسه،

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
مجلد: 14 عدد: 01 مارس 2019
ص.ص. 11. 35

كما قبضوا على جميع الجنود الذين لاذوا بالفرار» (كربخال مرمول، 1989: 337.336). لقد اعترف المؤرخون الفرنسيون والأسبان على حدّ سواء، أنّ حسن باشا سلّم جثّه الكونت لابنه دون مارتين بالتحية العسكرية، يقول بول روف:» إنّ جثّته حملت على ظهر بغل مسرّج سار به إلى وهران ودفن هناك (Paul. R, 1998 : 175)، وسلّمت جثة الكونت مقابل فدية تقارب ألفي دوكا (2000)، مقابل إطلاق أحد أبناء شيوخ القبائل المُحتجزة في وهران (Paul. R, 1998 : 175).

ألحقت هزيمة كبيرة بالجيش الاسباني وذلك بعد هزيمة جيش الملك الاسباني شرلكان (Charls Quint) سنة 1541م بعد هجومه على مدينة الجزائر، كانت الحصيلة ثقيلة تقدّر بآلاف القتلى والأسرى، وهذا ما أكده ليون فالي بقوله: «إنّ الجيش الاسباني أبيد تقريبا في ذلك اليوم مشؤوم وذلك يوم الجمة 26أوت 1558م» (Léon Fey. H, 1858 : 175).

إضافة إلى مقتل الكونت كان ضبّاطا جيشه بين قتيل وأسير وبين الأسرى ابنه الدون مارتينّ، وهذا ما ذكره الشاعر:

صَمْوَالْ منْ الْبكَا مَهْمُومْ   قَالْ كْلَامْ وْزَادْ لِيْهْ المَاء

فَرْغَنْسَا بَالْحبَلْ مَحْزُومْ   وَيْغِيْثُوهْ اِذْيَابْ الفُرمة

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 186).

إضافة على تأكيده آلاف الأسرى والقتلى في قوله:

حَزْنَاْهُمْ لَلْصُورْ ذَاكْ اليُوْمْ تَسْعَةْ آلافْ بْقَاْتْ مَغْنُومَةْ

مِنْ حَيْطْ الدَشْرَةْ لْحَوْضْ الدَوْمْ عَشْرَةُ آلَافْ مْشَاْتْ مَحْطُومَةْ

(الغوثي بخوشة محمد، د. ت: 185).

هذه الأرقام تقاربت مع الأرقام والجرحى والأسرى التي أوردها المؤرخون، حيث ذكر بول أنّ المؤرخ كروثادو (Cruzado)، ذكر نحو 5000 أسير، وديبغو سواريز (Diego Suarez) يرجح 1200 بين قتيل وأسير (Paul. R, 1998 : 176) بقي الأسرى عدّة سنوات في الأسر حتى سنة 1561م عندما عُين الدون ألونسو (Don Alonso) حاكما عاما على وهران، حين أفدى الأسرى ومن بينهم أخوه الدون مارتين.

حصيلة ثقيلة نتيجتها آلاف القتلى والجرحى والأسرى، لكنها كارثة بالنسبة إلى الأسبان ذهب ضحيتها الكونت نفسه وضبّاطه وآلاف الجنود بين قتيل وأسير، ووضعت حدا لطموحات الأسبان للسيطرة على كل سواحل الجزائر وطرد الأتراك من شمال إفريقيا.

الخاتمة:

بالرغم من تعدّد التسميات التي أطلقها النُقاد والدارسون على هذا الفن، لكنّهم أجمعوا على أهمية في تاريخ المغرب الحديث، وخصوصا ما تعلق بتاريخ الجزائر، وأعطى الباحثون الفرنسيون أهمية للشّعر الشّعبي في الدراسات التاريخية؛ لأنّم يعتبرونه جزءا مهما من حياة الجزائريين؛ والذي يُعبّر عن مواقف اجتماعية وسياسية واقتصادية.

إنّ قصيدة« مزغران» للشّاعر الشّعبي سدي لخضر بن خلوف تُعد أنموذج الشّعر الشّعبي في تاريخ الجزائر، وتُعد مصدر مهم يؤرخ لمعركة مزغران بين الأتراك والأسبان سنة1558م قرب مستغانم والتي حُسمت لصالح أتراك الجزائر، وجاءت بتفاصيل مهمّة لم يذكر المؤرخون الكثير من التفاصيل التي أوردها سيدي لخضر بن خلوف.

وضعت معركة مزغران حدّا لمطامع الأسبان بالتوسع شرقا اتجاه مدينة الجزائر، وتهديد الوجود العثماني في الجزائر؛ بل كانت نتيجتها استسلام الجيش الاسباني بكامله، ومقتل وأسر آلاف الجنود من بينهم قائد الجيش وحاكم مدينو وهران الكونت دالكوديت، الذي يُعدّ أكثر الأسبان حنكة ومعرفة بشؤون الجزائر، وبهذا بدأت مرحلة جديدة للاحتلال الاسباني في الجزائر.

المراجع:

الأغا المزاري، بن عودة، (2009)، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا**، ج2، تح: يحيى بوعزيز، الجزائر، دار البصائر.

الأمير عبد القادر، (2007)، **مذكرات الأمير عبد القادر**، تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، الجزائر، دار الأمة.

بن الشيخ، التلي، (2007)، **دور الشعر الشعبي في الثورة (1830-1954م)**، الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش.

البوعبدلي، المهدي، (1983)، **وثائق أصلية تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر**، مجلة الثقافة، عدد خاص، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

دلاي، أحمد أمين، (2007)، **أغاني القصبة**، تر: فرحات حلاب، الجزائر، موفم للنشر.

دواحي، جلول عبد القادر، (2006)، «قراءة في سيرة الشاعر الشعبي سيدي لخضر بن خلوف، **مجلة الثقافة الشعبية**، البحرين، دار أخبار الخليج، العدد (33)، ص.ص

الركيبي، عبد الله، (1981)، **الشعر الديني الجزائري**، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

الزياني، محمد بن يوسف، (2007)، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تح: المهدي البوعبدلي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

سعد الله، أبو القاسم، (1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

سونيك، (1995)، **ديوان المغرب في أقوال أفريقية والمغرب**، تقديم: أحمد أمين: الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

عباد، صالح، (2014)، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م**، الجزائر، دار هومة.

العربي، إسماعيل، (د.ت)، **المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر**، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

العربي، دحو، (1989)، **الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية بمنطقة الأوراس**، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

الغوثي بخوشة، محمد، (د.ت)، **ديوان سيدي لخضر بن خلوف**، تلمسان، دار ابن خلدون.

قاضي، محمد، (2007)، **الكنز المكنون في الشعر الملحون**، تقديم: أحمد أمين دلاي وآخرون، وهران، مطبعة AGP.

كربخال، مرمول، (1989)،**إفريقيا**، تر: محمد حجّي وآخرون،ج2، الرباط، دار النشر للمعرفة.

المدني، أحمد التوفيق، (د.ت)، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(1492-1792)**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

المرزوقي، محمد، (1967)، **الأدب الشعبي**، تونس، الدار التونسية للنشر.

الوزان، الحسن، (1983)، **وصف إفريقيا**، تر: محمد حجّي ومحمد الأخضر، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- Bencheneb Mohamed, (S.D) **la Guerre de la Crimée et les Algériens par le Cheikh Mohamed sidi Ismail d' Alger**, R.A, N° , 19
- Cour .A, (1918) **la Poésie populaire politique au temps de l'Emir Abdlqader,** R.A , N° 59,.
- Desparmet. J, (1930) **l'Entrée des Français à Alger par le Cheikh Abdlkader,** R.A , N° 71,.
- Fray Diego de HAEDO, (1880) **Histoire des Rois d'Alger,** Traduit par H.D de Gramont, R.A, N°24 ,.
- Gaid Miloud, (S.D) **l'Algérie sous les Turcs,** 2 Ed Mimouni, Alger.
- Henri –Léon Fey, (1858) **Histoire d' Oran avant, pendant et après la domination espagnole**, Typographie Adolphe Perrier, Oran,.
- Ruff Paul, (1998) **la domination espagnole à Oran sous le gouvernement le Comte d' Alcaudète 1535-1558,** présentation : Chantal de la Verrone, Ed. Bouchene,.

للإحالة على هذا المقال:

ـ هاشمي بن براهيم، بوغفالة ودان، (2019)، «الشّعر الشّعبي الجزائري في الدراسات التاريخية: قصيدة «قصة مزغران» للشاعر الشّعبي لسيدي لخضر بن خلوف أنموذجا». المواقف، المجلد: 14، العدد: 01، مارس 2019، ص. ص. 11 .35